العنوان الأحد عيد إرتفاع الصليب

الأخت راغده عبيد (ر.ل.م.)

(يوحنا ١٢/ ٢٠-٣٢)

٢٠. وكانَ بينَ الصَّاعِدينَ لِيَسجُدوا في العيد، بعضُ اليونانيّين.
٢١. فدَنا هؤلاءِ من فيلبُّسَ الَّذي مِنْ بيتَ صَيدا الجَليل، وسَأَلوهُ قائلين: "يا سيّد، نُريدُ أن نَرَى يَسوع".
٢٢. فَجاءَ فيلِبُّسُ وَقالَ لأَندراوس، وجاء أندراوسُ وفيلبُّسُ وقالا لِيَسُوع.
٢٣. فأجابَهُما يسوعُ قائلاً: "لقَد حانَتِ السَّاعةُ لِكَي يُمجَّدَ ابنُ الإنسان.
٢٤. ألحقَّ الحقَّ أَقولُ لَكُم: إنَّ حبَّةَ الحِنطَة، إن لَم تَقَع في الأَرضِ وتَمُتْ، تَبقى واحِدة. وإنْ ماتَتْ تأتي بِثَمرٍ كَثير.
٢٥. مَنْ يُحِبُّ نَفسَهُ يَفقِدُها، ومَنْ يُبغِضُها في هذا العالَمِ يَحفَظُها لِحياةٍ أَبديَّة.
٢٦. مَنْ يَخدُمْني فَلْيَتبَعني. وحَيثُ أَكونُ أَنا، فَهُناكَ يَكونُ أَيضًا خادِمي. مَنْ يَخدُمْني يُكَرِّمْهُ الآب.
٢٧. نَفْسي الآنَ مُضطَرِبَة، فَماذا أَقول؟ يا أَبَتِ، نَجِّني مِنْ هَذهِ السّاعَة؟ وَلَكِنْ مِنْ أَجلِ هذا بَلَغتُ الى هذهِ السَّاعَة!
٢٨. يا أَبَتِ، مَجِّدِ اسْمَك". فَجاءَ صَوتٌ منَ السَّماءِ يَقول: "قَدْ مَجَّدْتُ، وسَأُمَجِّد".
٢٩. وسَمِعَ الجَمعُ الحاضِرُ فَقالوا: "إنَّهُ رَعْد". وقالَ آخَرون: "إنَّ ملاكًا خاطَبَهُ".
٣٠. أَجابَ يَسوعُ وقال: "ما كانَ هذا الصَّوتُ مِنْ أَجلي، بَلْ مِنْ أَجْلِكُم.
٣١. هيَ الآنَ دَيْنونَةُ هذا العالَم. أَلآنَ يُطْرَدُ سُلْطانُ هذا العالَمِ خارِجًا.
٣٢. وأَنا إذا رُفِعْتُ عَنِ الأَرض، جَذَبْتُ إِلَيَّ الجَميع".

مقدّمة

إنَّ نّصَّ الإنجيلِ الَّذي تَخْتارُهُ ليتورجيَّتُنا المارونيَّةُ لِعيدِ ارتفاعِ صليبِ رَبِّنا يَسوعَ المَسيحِ، هو قِطعَةٌ فَنِّيَّةٌ نَسَّقَها الإنجيليُّ يوحَنّا بِطريقَةٍ إبداعِيَّة. فَقَدْ جَمَعَ فيها بينَ الحَدَثِ، (صُعودُ اليونانيّينَ إلى العيد ورَغبَتِهِم بِرؤيَةِ يسوع) والمَجازِ (مَثَل حبّةَ الحِنْطَة). بين الألَمِ (نَفْسي مُضطَّرِبَةٌ) والمَجدِ (مَجدُ ابنِ الإنسان ومَجدُ اسْمِ الآب). بين الآنيّةِ، (الآنَ وهذهِ السَّاعة) والإسْكاتولوجيا (أَلحياةُ الأَبَدِيَّة).

أَمّا الإِطارُ الـمُباشَرُ الَّذي حَدَّدَ فيهِ الإِنجيليُّ نَصَّهُ، يَدُلُّ إِلى "فَوق" أَو "جِهَةُ الأَعْلى" وعَبَّرَ عنها بِفِعْلَين: في الآية الأولى "صَعَدَ" وفي الآيةِ الأَخيرَة "رَفَعَ". وكَأَنَّهُ بِنَصِّهِ هذا، يَدْعونَا لِلتَّعالي ولِرَفْعِ أَنْظارِنا نَحوَ الرَّبِّ يَسوعَ، لأَنَّهُ بَعدَ بُلوغِهِ إِلى ساعَةِ آلامِهِ وصَلْبِهِ ومَوتِهِ، سيَقومُ ويَعودُ حيًّا مُمَجَّدًا إِلى عَرشِهِ في السَّماءِ.

شرح الآيات

٢٠ وكانَ بينَ الصَّاعِدينَ لِيَسجُدوا في العيد، بعضُ اليونانيّين.

٢١ فدَنا هَؤُلاءِ مِن فِيلِبُّسَ الَّذي مِنْ بيتَ صَيدا الجَليل، وسَأَلوهُ قائِلين: "يا سيّد، نُريدُ أن نَرَى يَسوع".

يُفتَتَحُ النَّصُّ بِتَعابيرَ قويَّةً مَليئَةً بِالـمَعاني. إِنَّ مُناسَبَةَ صُعودِ اليونانيّينَ إِلى أورَشَليم (كَما يُخبِرُنا النَّصُّ السّابِق) هو عيدُ الفِصْح. لَكِنَّ الآيَةَ الأُولى تُثيرُ الغَرابَةَ: ما عَلاقَةُ اليونانيّينَ بعيدِ اليَهود؟ وكيفَ يَأتي اليونانيُّ مِن أَبناءِ الأُمَمِ لِيَسجُدَ في هَيكَلِ اللهِ الواحِد؟ والغَرابَةُ الأَكْبَرُ هوَ طَلَبُهُم الجَريءُ والعَلَنيُّ في الآيَةِ الثّانِيةِ: "نُريدُ أَن نَرى يَسوع". وثِقَتُهُم مِن نَيلِ مَطْلَبِهِم. إِلى ماذا يَهْدِفُ الإِنجيليّ يوحَنّا مِن كُلِّ هذا؟

إِنَّهُ يَسْتَعْمِلُ كَلِمَة "اليونانيّين" بِطَريقَةٍ مُبَطَّنَةٍ لِيَجعَلَها "عَلامَةً" لِلرَّبِّ يَسوعَ، مِن خِلالِها يَفْهَمُ أَنَّ ساعَتَهُ اقْتَرَبَت. فَهَؤُلاءِ اليونانيّينَ هُم مُرْتَدّونَ وقد اعْتَنَقوا الدّينَ اليَهوديَّ، فأَتَوا كَمُؤمِنينَ بالرَّبِّ الواحِد لِيَسْجُدوا في الهَيكَل. وهُم كَغَيرِهِم، سَمِعوا عَن يَسوعَ، عَن أَعمالِهِ وتَعالِيمِهِ. ويَرْغَبونَ بِالتَّعَرُّفِ إِلَيهِ، عالِمينَ أَنَّ رِسالَتَهُ هيَ لِلجَميع، لا يَحُدُّها دِينٌ ولا عِرْق، ما يُفَسِّرُ جُرأَتَهُم وثِقَتَهُم.

٢٢ فَجاءَ فيلِبُّسُ وقالَ لأَندراوس، وجاءَ أندراوسُ وفيلبُّسُ وقالا لِيَسُوع.

٢٣ فأجابَهُما يسوعُ قائِلاً: "لقَد حانَتِ السَّاعةُ لِكَي يُمَجَّدَ ابنُ الإِنسان.

تَناقُلُ الخَبَرِ بَينَ التّلاميذ يُصَوِّرُ أَهَمّيَّةَ طَلَبِ اليونانيّين. فَتِلْميذَينِ اثْنَينِ نَقَلا مَطْلَبَ ورَغبَةَ هؤُلاءِ إِلى يَسوع. إِنَّهُما شَاهِدَيْنِ اثْنَينِ على هَذِهِ الحَقيقَة، فلا غِشَّ فيها. أَمَّا الخَبَرُ، فَوَقَعَ في أُذُنَي الرَّبِّ يسوع مِثلَ عَلامَةٍ لَهُ مِن الآبِ السَّماويّ. فَكانَ جوابُهُ غريبًا جِدًّا، خارِجًا عَنِ الـمَأْلوف، جَديدًا: "لَقَد حانَتِ السَّاعَةُ لِكَي يُمَجَّدَ ابْنُ الإِنسان". هَكَذا أَرادَ الإِنجيليُّ يوحَنّا أَن يُصَوِّرَ حَدَثَ اقْتِرابِ يَسوعَ مِن ساعَةِ آلامِهِ ومَجْدِهِ. أَرادَهُ حَدَثًا يَتَشارَكُ بِإِعلانِهِ الإِبْنُ والآبُ، مَعًا. أَرادَهُ حَدَثًا يَشْهَدُ لَهُ اليَهودُ (تلاميذُهُ) والشُّعوبُ الغَريبَةُ (اليونانيّون)، مَعًا.

٢٤ ألحقَّ الحقَّ أَقولُ لَكُم: إِنَّ حبَّةَ الحِنطَة، إِن لَم تَقَع في الأَرضِ وتَمُتْ، تَبقى واحِدة. وإِنْ ماتَتْ تأتي بِثَمرٍ كَثير.

٢٥ مَنْ يُحِبُّ نَفسَهُ يَفقِدُها، ومَنْ يُبغِضُها في هذا العالَمِ يَحفَظُها لِحياةٍ أَبديَّة.
هَاتانِ الآيَتانِ يُفَسِّرُ بِهِما الرَّبُّ يَسوع عِبارَةَ "ساعَةَ مَجْدِه"، هوَ ابنُ الإنسان. فَمَثَلُ "حَبَّةَ الْحِنْطَةِ" مُرَكَّبٌ على شَكْلِ جُمْلَتَينِ شَرْطِيَّتَين عَنِ الحَقيقَة: (إِنْ ... حقيقَة؛ إِنْ ... حَقيقَة). فَحَبَّةُ الْحِنطَةِ، إذا لَمْ تَمُتْ بَعدَ وُقوعِها في تُرابِ الأَرضِ، فَحَتْمًا، سَتَبْقى وَحيدَةً تَحْمِلُ المَوتَ في ذاتِها، لا نَفْعَ مِنْها. أَمَّا إذا ماتَتْ واسْتَسْلَمَتْ لِدَورَةِ الحياة، فَسَتُعْطي حَقًّا، حياةً وثِمارًا كَثيرة.
في كِلْتَي الحالَتَيْن، الأَرْضُ هيَ سَاحَةُ الحَدَث. فَمَنْ أَرادَ أَن يَحْيا، عَلَيْهِ أَن يَسْتَسْلِمَ، كَحَبَّةَ الحِنْطَة، لِدَورَةِ الحياة الَّتي تَتِمُّ في قَلْبِ الأَرض. هَذِه الدَّورَةُ تَبْدَأُ بالتَّخلّي الكُلّيِّ عَنِ الذّاتِ حَتّى المَوتِ، ثُمَّ مِنَ المَوتِ تُثْمِرُ الحياةُ مِنْ جَديد. وَلَكِنْ هَذِه المَرَّة، حَياةً أَبَدِيَّة لا نِهايَةَ لَها أَبَدًا. أَمّا مَنْ أَرادَ أَن يَموت، فَلَنْ يَخْتارَ أَبَدًا الاسْتِسلام لِدَورَةِ الحَياة ولا لِلتَّخلّي عَن ذاتِه؛ فَتَكونُ الأَرضُ لَهُ مَدْفَنًا أَبَديًّا، لا خُروجَ مِنْه أَبَدًا.
فالسَّاعَةُ الَّتي حانَتْ إِذًا، هِيَ ساعَةُ الحقيقَة: دُخولُ الحياةِ الأَبَدِيَّةِ هوَ عُبورٌ في أَرْضِ المَوت. فَالكَلِمَةُ الأَخيرَةُ هيَ لِلْحياة، والموتُ ليسَ إِلاّ مَرْحَلَةَ عُبورٍ إِلى الحياةِ الحقيقيَّة.

٢٦ مَنْ يَخدُمْني فَلْيَتبَعني. وحَيثُ أَكونُ أَنا، فَهُناكَ يَكونُ أَيضًا خادِمي. مَنْ يَخدُمْني يُكَرِّمْهُ الآب.
بَعْدَما فَسَّرَ الرَّبُّ يَسوعُ قَصْدَهُ مِنْ جوابِهِ: "حانَتْ ساعَةُ مَجْدي"، أَي ساعَةَ اسْتِسلامِهِ لِلمَوتِ، لِلخُروجِ مِنْ هَذِه الحياةِ ودُخولِهِ في الحياةِ الأَبَديَّة، يَدْعو الَّذينَ يَرْغَبونَ بِخِدْمَتِهِ لاتِّباعِهِ في هَذِهِ الطَّريق. ثُمَّ يَعِدُ أَتْباعَهُ وخُدّامَهُ، بِأَمْرَين: الأَوَّل، أَلسُّكْنى مَعَهُ حيثُ سَيَكونُ، أَي في دِيارِ المَجْدِ الأَبَديّ. والثّاني، بِأَنَّهُ سَيَنالُ مِنَ الآبِ السَّماويّ الإِكْرامَ. هَذِهِ الآيَة تُظْهِرُ عِظَمَ المَجْدِ الَّذي يَنْتَظِرُ الَّذينَ يَتْبَعونَ الرَّبَّ يَسوع في طَريقِ الموتِ عن الذّاتِ.

٢٧ نَفْسي الآنَ مُضطَرِبَة، فَماذا أَقول؟ يا أَبَتِ، نَجِّني مِنْ هَذِهِ السّاعَة؟ وَلَكِنْ مِنْ أَجلِ هذا بَلَغتُ الى هذِهِ السَّاعَة!
٢٨ يا أَبَتِ، مَجِّدِ اسْمَك". فَجاءَ صَوتٌ مِنَ السَّماءِ يَقول: "قَدْ مَجَّدْتُ، وسَأُمَجِّد".
بَعْدَ الوُعودِ، يَدْخُلُ يَسوعُ في ساعَةِ النِّزاعِ الأَليمَةِ. فَرَغْمَ عِظَمِ المَجْدِ وتَعزِيَةِ المَواعيدِ، فإِنَّ هَوْلَ ساعَةِ المَوتِ رَهيبٌ ومُخيفٌ. يُعَبِّرُ عَنْهُ يَسوعُ بِشُعورِ الإِضطِّرابِ، أَي غِيابِ السَّلام وحُلولِ الإِرتِباكِ النَّفسيِّ الشَّديد.
تَساؤُلَهُ: "ماذا أَقول؟" يَدُلُّ على أَنَّ اسْتِسلامَهُ لِلموتِ هوَ خَيارٌ حُرٌّ. يُمْكِنُه الرَّفْض والتَّراجُع، كَما يُمْكِنُه الاسْتِسلامُ والقُبولُ. ويَقومُ يَسوعُ بالاخْتِيارِ وهوَ يَتحَدَّثُ مَع أَبيه، لأَنَّهُ جاءَ لِيَعمَلَ ما تَرْتَضيهِ مَشيئَتُهُ: "يا أَبَتِ!" ثُمَّ يَتَذكَّرُ أَنَّهُ جاءَ إِلى هذا العالَمِ، لأَجْلِ هذِهِ السّاعَةِ

بالذّاتِ، لِيَعْبُرَ في أَلَمِ الموت فَالحياة. لأَنَّهُ، بِهَذه الطَّريقَةِ فَقَط، تَتَحقَّقُ مَشيئَةُ الآبِ ويَتمَجَّدُ اسْمُهُ. فَلِذا، جاوَبَهُ أَبوه السَّماويُّ، مُعَزِّيًا نَفْسَهُ المُضطَرِبَة: "قَدْ مَجَّدْتُ، وسَأُمَجِّدُ".

٢٩ وسَمِعَ الجَمعُ الحاضِرُ فَقالوا: "إِنَّهُ رَعْد". وقالَ آخَرون: "إِنَّ ملاكًا خاطَبَهُ".
٣٠ أَجابَ يَسوعُ وقال: "ما كانَ هذا الصَّوتُ مِنْ أَجلي، بَلْ مِنْ أَجْلِكُم.
إِعْلانُ الآبِ مِنَ السَّماءِ هوَ عَلَنيٌّ ولَيسَ فقَطْ لابْنِهِ يَسوع، بَل لِلَّذينَ يُرافِقونَهُ. نُلاحِظُ أَنَّ الآبَ أَسْمَعَ صَوْتَهُ وكَلِماتَهُ (آ٢٨). فالصّوتُ كانَ مِنْ أَجْلِ الحاضِرين وقدْ فَسَّروهُ بِتَعابيرَ مُخْتَلِفَة: رَعْد وصوتُ مَلاك. أَمَّا الكَلِمات، فَكانَتْ لأَجْلِ يَسوعَ وَحْدَهُ ومُحْتَواها واضِحٌ، فما مِنْ أَحَدٍ يَحِقُّ لَهُ تَحْريفُها.
ويَقولُ يسوعُ لِلحَاضِرينَ: "ألصّوتُ كانَ مِن أَجْلِكُم". فَإِنْ فَهِموهُ كَصوتِ رَعْدٍ أَو تَلَقَّوهُ كَصوتِ مَلاك، فالمَصْدَرُ واحِدٌ أَيْ السَّماءُ، عَرْشُ اللّهِ. وهذا الأَمرُ مَعلومٌ عندَ جَميعِ الأَديَانِ. فالصَّوتُ إِذًا كافٍ، لِكَي يُؤْمِنَ جَميعُ الحاضِرين، من يونانيّينَ ويَهودٍ، بِأَنَّ يَسوعَ هوَ ابنُ اللّه.

٣١ هيَ الآنَ دَيْنونَةُ هذا العالَم. أَلآنَ يُطْرَدُ سُلْطانُ هذا العالَمِ خارِجًا.
٣٢ وأَنا إِذا رُفِعْتُ عَنِ الأَرض، جَذَبْتُ إِلَيَّ الجَميع".
يُنْهي يَسوعُ كَلامَهُ بِإِعْلانِ الدَّيْنونَةِ لِهذا العالَمِ، فَسُلْطانُهُ يُطْرَدُ خارِجًا لأَنَّهُ سُلْطانُ الموتِ. هوَ يَدَعُ حَبَّةَ الحِنْطَةِ تَقَعُ في الأَرضِ مِنْ دونِ أَن يَدُلَّها على سَبيلِ حَياتِها. يُوهِمُ الإِنسانَ بِأَنَّ نِهايَتَهُ هيَ الموتُ وما مِنْ مَفَرٍّ آخَرَ. إِنَّهُ سُلْطانُ الخِداعِ والظُّلْمَةِ الَّتي تُعْمي النَّفْسَ والجَسَدَ معًا.
أَمّا الرَّبُّ يَسوعُ عَلَّمَنا طَريقَ الحَياةِ وأَنارَها لَنا. فَمَعَهُ لا نَخافُ الموتَ لأَنَّ لا سُلْطانَ لَهُ عَلَينا. ولِذلِكَ يَعِدُنا مَرَّةً أُخْرى، أَنَّهُ عِنْدَما يُرْفَعُ عَنِ الأَرضِ، سَيَرْفَعُنا مَعَهُ إِلى حَيثُ سَيَكونُ، لِنَكونَ إِلى الأَبَدِ مَعَهُ.

خلاصة روحيّة

عيدُ ارتِفاعِ صَليبِ الرَّبِّ يَسوعَ المسيحِ، أَرادَتْهُ كَنيسَتُنا المارونيَّةُ مُناسَبَةً لإِعلانِ ساعَةِ الحَقيقَة، حَقيقَةِ الحياةِ الأَبَديَّةِ الَّتي بَشَّرَنا بِها الرَّبُّ يَسوعُ: "مَنْ يُحِبُّ نَفسَهُ يَفقِدُها، ومَنْ يُبغِضُها في هذا العالَمِ يَحفَظُها لِحياةٍ أَبديَّة" (آ٢٥). ماذا نَخْتار؟ ألموتَ أَمِ الحَياةَ؟ أَلحَقيقَةُ تَقْلِبُ المَقاييسَ الَّتي حَدَّدَها العالَمُ. فَهذا الأَخيرُ يَعْمَلُ جاهِدًا لِجَذْبِ الإِنسانِ إِلى التَّعَلُّقِ بِهَذهِ الحياةِ المَحْدودَةِ السِّنين والمُتَقَلِّبَةِ والفانِيَةِ. فَنَرى أَنَّ اهْتِمامَ العالَمِ يَتَوجَّهُ نَحوَ إِبْعادِ عَلاماتِ الشَّيخوخَةِ، حُبِّ الذّاتِ والابْتِعادِ عَن الآخَرِ ومَشاكِلِهِ، والاهْتِمامِ المُفْرِطِ بالرّاحَةِ والرَّشاقَةِ والأَنانيَّةِ. فالإِنسانُ صارَ مِحْوَرَ ذاتِه، بِدونِ أُفُقٍ جَديدٍ. أَمّا الحَقيقَةُ الَّتي

يُعَلِّمُناها الرَّبُّ يَسوعُ. فَهيَ الموتُ عَنِ الذّاتِ. أَي التَّخَلّي عَن كُلِّ تِلكَ الوسائِلِ الَّتي يُقَدِّمُها العالَمُ وغَيْرِها أَيْضًا، لأَنَّها تُكَبِّلُنا في هذا العالَمِ. أَلحَقيقَةُ تُحَرِّرُنا، تَرْفَعُنا، تُشَجِّعُنا، تَفْتَحُ لَنا كُلَّ الآفاقِ. أَلحَقيقَةُ تَعِدُنا بالحَياةِ الأَبديَّةِ، لا بالموتِ. هيَ حَقيقَةٌ، لا غِشَّ فيها. هيَ شَخْصٌ حَيٌّ لَهُ اسْمٌ هو "يسوعُ"، لا المَجهولُ.